الأمن اللغوي للأطفال

في وسائل الإعلام

أُعدّ لأحد المؤتمرات في جامعة نايف للعلوم المنية، وعِيق الباحث عن المشاركة.

توطئة:

عنوان هذه المقالة يتضمن ثلاث وحدات لغوية، ينبغي بيان المراد بها قبل عرض الأفكار:

الأولى: الأمن اللغوي، والمراد بهذا أن تكون اللغة نفسُها آمنةً في دلالاتها وإيحاءاتها لمن هم في سنّ الطفولة –وهذه مسألة تربوية لن أعرض لها– وأن تكون آمنةً من جهة ألفاظها وتراكيبها وبنائها. أي أن تكون اللغة في الإعلام مُعينةً للطفل على اكتساب اللغة اكتسابًا صحيحًا، يجعله قادرًا على الوعي بها واستعمالها على وجوهها الصحيحة المقبولة.

الثانية: الأطفال، والمراد بهم الذين لم يتجاوزوا الثانية عشرة. بغضّ النظر عن الاختلاف في تحديد دلالة (الطفل) في المعاجم، أو في العُرف، أو في المواثيق الدولية، لأن سن الثانية عشرة هي في الغالب نهاية الاكتساب اللغوي في مراحله الأولى.

الثالثة: وسائل الإعلام: وتشمل المقروء والمسموع والمرئي، سواء أكان في أوعيته التقليدية (صحف، إذاعة، تلفاز)، أو كان في أوعيته الجديدة (شبكة المعلومات الدولية "انترنت" بما تحوي من مواقع وتطبيقات مثل فيسبوك وتويتر ويوتيوب وغيرها، والأجهزة الذكية وما فيها من أنماط اتصال حديثة متجددة).

مدخل:

يكتسب الطفل في سنوات عمره الأولى لغته الأم، فينطق بها ويتفاهم بها، بل يعيش بها، فتكون جزءًا من حياته وشعوره.

واكتساب اللغة يكون في البيت والمدرسة والبيئة، ثم في وسائل الإعلام التقليدية وفيما يسمى الإعلام الجديد.

ولما لِلُّغة في هذه المرحلة من الخطر والأهمية، ولكون اللغة هي أجلى مظاهر الانتماء والهُوِيّة؛ كان لزامًا أن تُضبط الوسائل التي تؤثّرُ في مستوى إدراك الطفل لها، وفهمه لأنماطها، وأن تُسَنّ قوانينُ ويُعمَلَ بإجراءات صارمة تحمي اللغة، وتعين على تقديم اللغة تقديمًا صافيًا جيّدًا، يحمي الطفل من المخاطر والإشكالات التي ظهرت منذ أمد، وزادت مع اتساعِ الإعلام الجديد.

ومن المظاهر السلبية في وسائل الإعلام التقليدية التي تشكل خطرًا على لغة الطفل ما بدأ واتسع في السنوات العشر الأخيرة، وأبرزها:

- إهمال الفصحى إهمالا كاملا في البرامج المباشرة، وضعف إعداد المذيعين في قنوات الأطفال. ولا يُستثنى من هذا الحكم إلا قناة (جيم) التي يلتزم فيها المذيعون لغةً فصيحة حتى في أثناء البث الفوري، على ما عندهم من هنات وأخطاء تُغتفَر بالنظر إلى جهدهم المبذول في الأداء السليم.
- تحوُّل قدر لا يُستهان به من منتجي الرسوم المتحركة إلى العاميات، وقد بدأت به قنوات خاصة، ثم قلّدتها قنوات رسمية، فصار الطفل يتلقى الرسوم المتحركة بالعامية القاهرية والنجدية والكويتية[١] وغيرها، وآخر ما رأيته من هذا هو إنتاجها باللهجة المغربية[٢]. وكلُّ ذلك نذير خطر كبير؛ فهو يزيد الانشعاب بين اللغة والطفل، بل يصعِّب عليه

١() بثتها مجموعة إم بي سي وبعض القنوات الخليجية والمصرية، وفي شبكة الإنترنت مواقع عدة يمكن مطالعة ما يُبَثُّ بتلك اللهجات، ومنها موقع إم بي سي٣.

(٢) مغامرات سالي مثلا على هذا الرابط:

http://www.youtube.com/watch?v=INJ6VrbVq1k

تلقي اللغة الفصحى الصافية، ويحجُزه عن التجاوب الشعوري معها، فضلا على أنه يقلل فهمه واستيعابه لما يقال ويكتب بها، ودع ذكر الهُوية والانتماء والتشعّب والتشرذم العربي، فتلك أعسر وأشدّ خطرًا.

- تبني بعض قنوات الأطفال العاميات لغة للأناشيد، ومن فضول القول أن الطفل يتجاوب مع الشعر المغنى به، ومن هنا يكون الأثر أشدَّ. وقد لاحظت في رصد استمر بضعة أسابيع لقنوات مختصة بأناشيد الطفل أن الفصحى لم تلق إلا النزر اليسير من العناية، واستحوذت عامية بلاد الشام بخاصة عليها، وزيد في السوء سوء آخر، إذ عمدت تلك القنوات إلى كتابة أبيات الشعر المنشَد على الشاشة كما هو بعاميته، فصار الفساد اللغوي يهيمن على الطفل مسموعًا ومقروءًا(٣).
- لجوء بعض الشركات والتجار إلى العامية أو ما يسمى (العربيزية) في إعلاناتهم ودعاياتهم. والمقصود هنا ما يُعرَض في قنوات الأطفال أو ما يُستهدَف به الأطفال، كالمنتجات الإلكترونية ونحوها.

وتلك المظاهر السلبية يمكن تقويمها وتنقيتها وإعادة توجيهها الوجهة السليمة، وبخاصة في القنوات الرسمية، إذا وُجد الإيمان والوعي والحماسة والمتابعة. ولكن المشكلة تبدو أكثر صعوبة في الإعلام الجديد.

فقد صعُبت السيطرة على المنجز الإعلامي بعد أن تَحوّلَ جمهرة من المتلقين إلى إعلاميين لا يحكمهم ضابط، ولا يخضعون لقانون، سوى ما يملي عليهم حسّهم السياسي أو الاجتماعي أو ضمائرهم. وأكثرهم هُواة قد يقتدرون على الإخراج الفني الجيد الشائق الجاذب، ولكنهم ضعفاء لغويًّا، وليس عندهم من الوعي والفهم والإدراك لخطورة اللغة ما يجعلهم يتنبهون إلى ترقية مستواها.

---

(٣) يراجع: بحثي المنشور بعنوان (اللغة العربية في فضائيات الأطفال: الواقع والطموح)، نشر مركز التنمية الأسرية، الأحساء، ط الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٣م، ص٢٢-٢٤.

وبعضهم انفعاليون ينتُج العمل (الإعلامي) بين يديهم خِداجًا شائهًا، من حيث قيمته الفنية أو الإعلامية ومن حيث مستواه اللغوي، وقد يكون -مع ذلك- شديد الأثر، واسع القبول عند فئات صغار السن الذين لا يطلبون سوى المتعة والتسلية العابرة.

وليس بين يدي إحصاءات أو دراسات لمستويات اللغة التي تُقدّم بها اللغة في مواقع التواصل الاجتماعي، أو في وسائل البث الجديد (يوتيوب، كِيك، وغيرهما)، ولكن المشاهَد الذي لا يحتاج إلى كثير بيان وتفصيل أن اللغة الفصحى أو الفصيحة مَضايقة فيها بما يلي:

- استعمال العامية المحلية الضيقة النطاق مكتوبة أو منطوقة، وبلغ الانحطاط اللغوي ببعضهم أن يترجم المقاطع الأجنبية إلى عامية سوقية مبتذَلة.
- الكتابة بلغة جيدة ولكن المستوى الإملائي والنحوي غير جيد. وهذا يظهر كثيرًا في مواقع أو موادَّ تقدَّم للطفل في القنوات الاتصالية الجديدة.
- أداء المادة الإعلامية بالفصيحة الركيكة أو كثيرة اللحن.
- تعمّد الإفساد اللغوي استظرافًا أو لأهداف أخرى.
- الركون إلى اللغة الهجين أو ما يسمى (العربيزي)، وهذا يظهر عند فئات المراهقين ومن هم في بواكير الشباب غالبًا، غير أنه مرشّح للتمدد ولمزيد من الانحراف.

والمشكلة أن لغتنا –بتلك الاجتهادات العشوائية وبسكوت المعنيّين أو بضعف جهودهم– دخلت عصر الإعلام الواسع وهي تعاني من ضعف المناعة، فاستُحدِثت لغات تنتمي إلى العرب لا إلى العربية، وعمّ التلوث اللغوي جميع القنوات ووسائل الاتصال، وكل ذلك "يفسد الفكر، ويُشيع ضروبًا من الاضطراب والإرباك والقلق في العقول، وفساد الحياة العقلية للأمة، وربما تنتقل عدواه إلى فساد في معظم المجالات، فتختلط المعاني والدلالات والمفاهيم والرموز في لغة الحوار"[٤]. والمشكلة أعظم عند الأطفال؛ لأنهم في مرحلة غضة تجعلهم يكتسبون ولا يسألون أو يتساءلون، ويتطبّعون بكل

٤() اللغة العربية في الفضائيات، التقرير الخامس من منتجات برنامج ريادة، مؤسسة الرشيد للإعلام، الرياض، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨، ص ٩٣-٩٤. بتصرف.

ذلك الانحراف والفساد. والأثر بعد ذلك كبير على مستويات فهمهم واستيعابهم، وقدراتهم اللغوية كتابة ونطقًا.

وكل تلك المظاهر ناتج في الغالب عن غياب الوعي أو ضعفه، وعلاج ذلك لن يتحقق إلا ببرامج طويلة المدى، تشارك فيها الجهات التربوية والتعليمية والثقافية. وإن تُركت الأمور على ما هي عليه، فكأننا نسلّم أمر تربية أطفالنا للشوارع أو المفسدين، أو الفارغين.

إن ما سبق ذكره يشمل ما يُخصّ به الأطفال وما يقدّم للجميع، ولكن الأطفال أكثر تأثرًا، وتلك السلبيات أسرع علوقًا بأذهانهم وألسنتهم من الكبار.

توصيات لضمان الأمن اللغوي للأطفال:

إن الاهتمام باللغة ليس محصورًا في علماء اللغة والنحو، بل هو متعلق بالهوية والانتماء؛ وعليه فيجب أن يكون من اهتمام الدولة ومؤسساتها في الصناعة والتجارة والعمل والخدمة المدنية والشؤون الداخلية والخارجية وغيرها.

كل أولئك كان عن هذه القضية مسؤولا؛ لأن ما تواجهه اللغة العربية اليوم أشبه بـ(الإرهاب الثقافي) الذي لا يقلّ خطرًا عن ضروب الإرهاب الفكري أو الأمني؛ لأن استلال الانتماء من نفوس الأطفال، وتخريبَ هويتهم، وتغريبَهم عن لغتهم وثقافتهم هو إرهاب أيّ إرهاب.

ثم إن على المؤسسات المعنية باللغة –تؤازرُها المؤسسات الحكومية– أن تنهدَ لتصفية وسائل الإعلام قديمها وجديدها من الشوائب التي تعكّر تلقيَ الطفل لِلّغة، وتنطوي على غوائل فكرية أو ثقافية، حتى تكونَ خاليةً من المؤثِّرات السلبية.

و**أهم التوصيات** التي أرى ضرورة الأخذ بها، مُجملةٌ فيما يلي:

- السعي لضبط ما يُقدَّمُ للأطفال في قنواتهم الخاصة أو في القنوات العامة، وذلك بعدة سبل، منها: اختيار المذيعين القادرين لغويًّا، وجعلُ اللغة الفصيحة لغةَ التخاطب والحوار، ولغةَ الأفلام المعرّبة، والإعلان وغيره، وفي دستور الدولة ونظام وزارة الثقافة والإعلام ما يضمن ذلك، لو قُدِّر أن يُعمَل بها حقَّ العمل.

- اقتراح ميثاق شرف إعلامي للقائمين على قنوات الأطفال وعلى منتجي المواد المقدمة لهم، يكون من بنودها التزام اللغة الفصيحة، والسعي لجعلها لغة الطفل العربي في كل قُطر.
- العون المالي لمنتجي أفلام الأطفال (الرسوم المتحركة أو غيرها)، وإيجاد جائزة للأعمال الإبداعية المسهمة في تقريب الفصحى للطفل.
- دعوة أصحاب رؤوس الأموال للمشاركة في خدمة الدين والمجتمع والوطن بخدمة اللغة، دعمًا لبرامجها ومواكبة لما يُقرُّ بشأنها.
- السعي لإنتاج نسخة جديدة مواكِبةٍ للعصر وتغيراته من البرنامج الناجح (افتح يا سمسم)[٥] أو ما يماثله تأثيرًا وجودةً، وبثِّه في مواقع الإعلام الجديد، واستعمال كل وسيلة تعين على نشره وشيوعه.
- تبنيّ حملات توعية بأهمية اللغة الفصحى، في وسائل الإعلام التقليدية والحديثة، ودعوة المهتمين بالإنتاج الإعلامي للمشاركة فيها.
- أرى ضرورة أن تنسِّق الجهات ذات الصلة فيما بينها تنسيقًا جادًّا مدروسًا، وأعني بالجهات: وزارة التعليم، ووزارة الثقافة والإعلام، والهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون والجامعات، ومركز الملك عبدالله لخدمة اللغة العربية والجمعية العلمية السعودية للغة العربية. وغياب التنسيق مدعاة لكثرة الضجيج دون طِحن، وكم من مؤتمر عُقد وندوة نُظّمت وبيانات كُتبت، ضاعت هي وأصداؤها، ولم نرَ لها إلا أثرًا كابيًا لا يكادُ يُذكر.
- العناية بتحفيظ القرآن في مراحل الطفولة، وزيادة حصص ومناشط اللغة العربية؛ فالمدرسة هي المحضِن الآمن -أو ذلك ما ينبغي أن يكون- وقد ثبت بالتجارب والدراسات أن قراءة القرآن وحفظه، ودراسة نصوص العربية وحفظها في الصغَر ذات أثر في اللسان كبير، فضلا على ما تُكسب الطفلَ من قيم ومُثُل وآداب.

٥() كتبت هذه المقالة قبل أن ترد الأخبار بإنتاج الجزء الثاني من هذا البرنامج.

- دعوة الأقسام العلمية المتصلة بهذه القضية كاللغة العربية والإعلام والاتصال والاجتماع إلى تشجيع الأبحاث والدراسات الميدانية، للإفادة من نتائجها ومرئيات أصحابها في تلمّس سبل الإصلاح.

وبعد، فإنه لن يكون لأي توصية أثر أو ثمرة ما لم تتبنَّ جهات ذات نفوذ سياسي أو ثقافي هذه القضية، وعليه فإني أدعو جامعة نايف – وقد نظّمت مؤتمرًا عن الأمن اللغوي من قبل– أن تجعلها جزءًا من مهامِّها الجِسام، فتُعنى بالتنسيق مع الجهات العليا، والمؤسسات ذوات العلاقة باللغة، وربطها بنطاق أوسع كمجلس التعاون لدول الخليج العربية، فلعل الجهود تتضافر للحدِّ من تلك المظاهر، والبدءِ في برامج مكثفة تسهم في ترقية الوعي العام، وتقي الأطفال في هذه الأجيال الحاضرة وأجيال لاحقة من المخاطر التي عرضتُ لبعضها فيما سلف.

والحمد لله رب العالمين.